تاركا البطل في حالة من الذهول والقلق ، اذ لا يجد أحدا يتعمد في نهر الاردن ، سوى الرصاص وحده . فترتفع موسيقى معزوفة « هاندل » المسيا بنهاية جديدة من « هلليلويا للرصاص يتعمد في نهر الاردن » .

والقسم الرئيسي من الرواية يغطي جذور المشكلة عن تصميم العرب على استعادة حقوقهم المسلوبة في فلسطين ومختلف القضايا او العوامل المتصلة بهذا الامر . لقد اصبح رمزي الان استاذا جامعيا ، وعاش فلسطينيا في المنفى طيلة عشرين عاما ، فراح يتعجب ازاء الخطر الجديد عما اذا كانت قصة منفاه سوف تشارف نهايتها . ورغم انه مأخوذ بالحس الطاغي من الثقة المفرطة ، فهو يشعر بأن واقعه لا يبرر ذلك . وعبر حواره مع ذاته وأحاديثه مع الاخرين يتقدم تدريجيا بالموضوع بأن بلاده متخلفة ومقطعة الاوصال ، يعوزها التخطيط ، كما تعوزها رؤيا واقعية الى المستقبل . فيهاجم اسطورة الوحدة بين العرب ، مشيرا الى كون العرب يعيشون كل ضمن قوقعته ، ومنفصلا عن الاخر . لا التعاون الحقيقي ولا التنسيق الصحيح موجود بين العرب ، على صعيد الدول أو الجماعات أو الافراد . حتى الخبراء فانهم من الفرديين في سعيهم ، وتعوزهم روح العمل التضامني . الثورات التي تعتبر تطورا ايجابيا اخفقت ، بنظر البطل ، في احداث تغييرات جذرية . ثم يلتفت الى الدور الذي قام به في الازمة الحاضرة كل من الطلاب والاساتذة والمثقفين على العموم ، فيجدهم رمزي على غير استعداد كليا ، وغير قادرين على الاتيان بعمل ما ، فيما عدا قتل وقتهم مثل سائر افراد الشعب ، بقراءة الصحف والاستماع الى الاذاعات ومشاهدة التلفزيون ، أو استنضاب حيويتهم في فورات انفعالية غير مجدية ، انهم يستحقون الملامة جزئيا ، لكن المدارس والجامعات والحكومات هي المسؤولة في المقام الاول ، لانها فشلت في اعداد هؤلاء المثقفين لمثل هذه الازمة ، بحؤولها دونهم والمشاركة الحرة في تحويل مجتمعهم وتغييره — كما فشلوا هم في استخدام طاقاتهم المخزونة على النحو الصحيح . ويتذكر وجود الالاف من الخبراء والتقنيين والاختصاصيين الذين يشلون عن العمل بطريقة ما أو غيرها : الاضطهاد ، الوضع في مكان غير ملائم ، انعدام التشجيع أو الحوافز .

أما النقطة الاخرى الهامة في هذا التقييم الناقد للذات فهي تتصل بالتقدير غير الواقعي الذي يقدره العربي للقوى العاملة او الفاعلة في مجتمعه أو غيره من المجتمعات ، والعالم الخادع والوهمي الذي يسهم في تكوينه أو يقع ضحية له . ويتصاعد هذا الامر جدا حين يستمع رمزي الى الروايات المبالغ فيها عن الحرب والى أخبار الجيوش العربية الزاحفة في اراضي العدو . بينما كانت الهزيمة العربية مقررة أو متوقعة منذ اليوم الاول للحرب. ومع ان رمزي يبدو اكثر اهتماما بأخطاء المجتمع العربي وآفاته ، فانه لا يحلل الغرب من المسؤولية في خلق اسرائيل وايجاد مشكلة النازحين ، كما يلقي عليه تبعة التقدير غير الواقعي لتصميم العرب على استعادة حقوقهم المسلوبة ، فالغرب والصهيونيون كلاهما يعاني من جراء عدد من الاساطير أو الافتراضات الخاطئة : بان العرب سوف يتخلون عن كفاحهم ، وبانه حالما يتم ارغام النازحين على الاستيطان في مكان اخر ، سوف يزول التوتر ، وانه كلما تكررت هزيمة العرب عسكريا ، كلما ازداد استعدادهم للتسوية . ان هذه الافتراضات ليست خاطئة فحسب بنظر البطل ، بل سوف تولد ردا أشد تعلقا بالنضال والقتال . ولذا فلا عجب هناك انه يرى الفدائيين ، في أعقاب الحرب ، بمثابة بارقة الامل الوحيدة التي تعيد الى العربي كرامته ، وايمانه بالمستقبل . ومن قبيل السخرية ، ان رمزي المتوجه نحو الغرب يختار الاعتماد الى حد كبير على الاصوات الغربية للاعراب عن غضبه ضد الغرب — وللتعبير عن ايمانه بالنصر النهائي لشعبه . ويبدو ان ت. س. اليوت والهولندي الطائر ودانتي واناشيد حركة المطالبة بالحقوق المدنية في اميركا (لا سيما انشودة « سوف نحرز الغلبة ») ، والاهم من ذلك كله : ديلان